وصايا لقمان العقدية والدعوية لابنه في سورة لقمان

دراسة بلاغية تحليلية

أ. د. غالب محمد محمود الشاويش*

تاريخ تقديم البحث:21/ 3/ 2016م. تاريخ قبول البحث: 19/ 6/ 2017م.

ملخص

الوصية جنس من الأجناس الأدبية، وغالبا تصدر عن خبير مجرب، قد عارك الأحداث، والوقائع، فهي تعتمد على أسلوب الأمر والنهي في تقديم النصيحة، والموعظة لمن يعنيه الأمر.

والوصايا نوعان: وصايا ربانية، وقد أشرت إلى ذلك في البحث، ووصايا بشرية، كوصايا: الأنبياء، والرسل - عليهم السلام - ووصايا الخلفاء، والحكام، والقضاة، والعلماء، والآباء، والأمهات، وغيرهم.

هذا وقد تناول البحث وصايا لقمان لابنه في موضوعين هما:

أولا – وصايا عقدية، وتقع في مطلبين:

1 – حثه على التوحيد ، ونهيه عن الشرك.

2 – تعريف ابنه بعلم الله - عز وجل - وقدرته.

ثانيا – وصايا دعوية تربوية، كإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر والثبات على المصائب، والشدائد.

* قسم اللغة العربية، جامعة الحسين بن طلال.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Abstract

The commandment is a type of literary genre, often issued by an experiential expert, who has fought events, and facts, they rely on the method of command and prohibition in providing advice, and exhortation to those concerned.

The commandments are of two types: divine commandments, and I have referred to this in the research, and human commandments, such as: the prophets, the apostles peace be upon them and the commandments of the caliphs, rulers, judges, scientists, fathers, mothers and others.

The research dealt with the commandments of' Luqman' to his son on two topics:

First are the commandments of the contract, located in two demands:

1- He urged him to believe in one God, and forbade him from infidelity

2- The definition of his son with the knowledge of God and his ability. Second, religious precepts, such as prayer, and enjoining virtue, and forbidding evil, and patience and steadfastness on calamities, and adversity.

The Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) described the Qur'an as saying: "... it does not create a great deal of response, and its wonders do not expire"

Finally, as "Sahl ibn Abd Allah" said: "If a person is given a letter from the Qur'an in every letter of the Qur'an, he does not know the end of what God has placed in a verse of his book, because it is the word of God, But it is understood as much as God has given him".

المقدمة

أولاً معنى الوصية لغة واصطلاحاً:

معناها لغة: جاء في لسان العرب: أوصى الرجل ووصاه: عهد إليه، والوصية: ما أوصيت به، وسميت الوصية: لاتصالها بالميت. والاسم: الوصاة، والوصية، والوصاية، وتواصى القوم: وصى بعضهم بعضا[1].

معناها اصطلاحاً: الوصية عبارة عن جنس أدبي، تصدر في الغالب من خبير مجرب، عارك الأحداث وعركته، استفاد صاحبها من تجاربه الطويلة في الحياة، فهي عصارة فكره، تعتمد على أسلوب الأمر، والنهي، في تقديم النصح والإرشاد، والموعظة الحسنة[2].

ومن ينظر في كتب التراث الأدبي، يجد كثيرا من الوصايا، ابتداء من العصر الجاهلي، وانتهاء بالعصر الحاضر.

ثانيا ـ أنواع الوصايا:

والوصايا أنواع: منها وصايا ربانية للإنسان، كقوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ) النساء:11، وقوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) الشورى: 13، وقوله تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون) البقرة: 132، وكقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) البقرة :180.

ومنها وصايا بشرية، كوصايا الأنبياء والرسل عليهم السلام وكوصايا الآباء والأمهات للأبناء، ووصايا الخلفاء، والحكام، والعلماء، والقضاة... الخ.

ثالثاً تعريف موجز بلقمان عليه السلام:

لقد اختلف في نسبه – عليه السلام فقيل هو لقمان ابن ياعورا ابن أخت أيوب عليه السلام، أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة.

(1) انظر لسان العرب: 15/ 394، مادة وصي، وانظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 5/ 229.

(2) انظر: النثر الجاهلي بين الأصالة والانتحال: 138.

وقد اختلف المفسرون في لقمان ـ عليه السلام . هل كان نبيا، أم عبدا صالحا من غير نبوة؟ والمشهور عند الجمهور، أنه كان حكيما وليا، ولم يكن نبيا، قال ذلك بعض السلف، منهم: مجاهد، وابن عباس، وسعيد بن المسيب الذي قال عنه: إن الله أعطاه الحكمة، ومنعه النبوة[1].

عمل بمهن مختلفة، فكان نجارا، ونجّادا، خياطا، وراعيا، وحطابا، حيث كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة من الحطب[2].

هذا وسوف أدرس هذه الوصايا العقدية، والدعوية ـ كما وردت في سورة لقمان ـ في مبحثين هما:

أولا ـ وصايا عقدية، وتقع في مطلبين:

أ ـ حثه على التوحيد، ونهيه عن الشرك.

ب ـ تعريف ابنه بعلم الله وقدرته.

ثانيا ـ وصايا دعوية تربوية.

أما وصايا لقمان الأخلاقية لابنه، فقد تناولتها في بحث آخر.

هذا، وسوف تكون دراسة هذه الوصايا، دراسة بلاغية تحليلية.

أما الغرض من هذه الدراسة، فهو التركيز على كيفية استفادة أبناء المسلمين من وصايا لقمان لابنه، في مجال التوحيد، وتعريفهم بعلم الله المطلق، حتى يحافظوا على عبادتهم، وأن تستقيم أخلاقهم، ثم حثهم على شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على أذى الناس؛ لأن من يقوم بهذه المهمة، يتعرض لذلك.

المبحث الأول: وصايا عقدية

جاءت وصايا لقمان العقدية لابنه في مطلبين هما:

أولا ـ حثه على التوحيد، ونهيه عن الشرك.

ثانيا ـ تعريف ابنه بعلم الله وقدرته.

(1) انظر: البداية والنهاية: 2/ 125، وانظر: الكشاف: 2/ 194, وانظر: البحر المحيط: 7/ 186، وانظر: لقمان الحكيم وحكمه: ص 106.

(2) انظر البحر المحيط: 7/ 186.

المطلب الأول: حثه على التوحيد، ونهيه عن الشرك

إن سر سعادة الإنسان في الحياة الدنيا، إنما يرجع إلى صحة العقيدة، وسلامة المفاهيم الصحيحة للحلال والحرام، فالتوحيد أول ما دعا إليه الرسل عليهم السلام وأول منازل الطريق، فكلما بعد الإنسان عن سلامة العقيدة، كانت عيشته ضنكا، فحياته عندئذ تفقد الراحة النفسية والشعور بالسكينة والطمأنينة، فأساس السعادة معرفة العبد ربه، ومن هنا أوصى لقمان ابنه بالتوحيد، وعدم الشرك بالله، من خلال قول الله عز وجل على لسان لقمان . عليه السلام ..

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) آية /13.

يبدأ لقمان ـ عليه السلام . وصيته لابنه بعدم الشرك بالله؛ لأن إصلاح الاعتقاد، أساس في إصلاح العمل.[1]

التحليل البياني (البلاغي)

الواو: حرف استئناف. والمعنى المستفاد من هذا الحرف هو أن لقمان يستأنف الحوار مع ابنه، فلا يمل، ولا ييأس من وعظه، وإرشاده إلى طريق الهدى والرشاد، وهكذا ينبغي أن يكون شأن الآباء مع أبنائهم، في التشديد على توجيههم ورعايتهم.

إذ: اسم ظرفي مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر، أي واذكر قول لقمان لابنه، فهو كلام عام لكل مسلم، ولام الجر في قوله (لابنه)، تفيد الاختصاص[2]. بمعنى: أن هذه الوصية تخص ابنه، إذ كانت موجهة إليه في ذلك الزمن الماضي البعيد، ومع هذا الاختصاص، إلا أن هذه الوصية وغيرها من وصايا لقمان، صالحة لكل زمان ومكان، حيث يستفيد منها الآباء في نصح أبنائهم، وإرشادهم. فالوعظ ترغيب من جانب، وزجر وترهيب من جانب آخر.

- جملة (وهو يعظه) حالية. والمعنى: أن لقمان . عليه السلام . يختار الوقت المناسب لوعظ ابنه؛ لأن مراعاة الحال النفسية والشعورية للمخاطب من أصول البلاغة، حتى يتقبل الموعظة، وتؤثر فيه النصيحة، وينفع فيه التذكير.

(1) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ج 20/ 169 وما بعدها وانظر: المحرر الوجيز: 347/4 وما بعدها، وانظر: البحر المحيط: 7/ 186، وانظر: الكشاف: 2/ 194، وانظر: لقمان الحكيم وحكمه: ص 123 وما بعدها، وانظر: مواعظ لقمان في القرآن: ص50وما بعدها. وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ج21/ 82 وما بعدها.

(2) انظر الجنى الداني في حروف المعاني: 96.

كما تشير الجملة الحالية (وهو يعظه)، إلى تلبس ابن لقمان بالشرك، حيث ذكر جمهور من المفسرين، أن ابنه كان مشركا، فلم يزل لقمان يعظه حتى دخل الإيمان قلبه[1].

- وجاءت الجملة الفعلية (يعظه)، خبرا للمبتدأ الضمير (هو) بعد واو الحال، ومن المعلوم عند البلاغيين[2]، أنه إذا كان المسند إليه اسما (وهنا ضمير)، والخبر جملة فعلية، ففي هذه الحالة تفيد الجملة التوكيد، وتقوية الحكم. ومعنى ذلك: أن لقمان يؤكد النصح والتذكير لابنه باستمرار، بدلالة مجيء الفعل (يعظه)، بصيغة المضارع، الذي يفيد التجدد، والاستمرار.

- يا بني: يا: أداة نداء، تستخدم لمناداة الشخص الذي يكون على مسافة قريبة من المنادي، أو مسافة متوسطة، أو مسافة بعيدة. فلقمان ابنه قريب منه، فاستخدم أداة النداء (يا)، والمعنى المستفاد من أداة النداء في هذا السياق، هو أن ابنه قريب إلى قلبه، وكيف لا، وهو فلذة كبده، وقطعة منه. وكلمة (بني)، جاءت على صيغة التصغير لكلمة (ابن)، فلم يقل: (يا ابني) والمعنى المستفاد من هذه الصيغة، هو التلطف، والترقق، وإشعار ابنه بزيادة المحبة له. كما أن صيغة التصغير، فيها إيحاء لابنه أنه ما زال بحاجة إلى مواعظ أبيه، وتذكيره بأمور يعلمها؛ لأن الوعظ لا يكون بمعلومات جديدة، وإنما هو التذكير بمعلومات قد علمت من قبل، مخافة الغفلة والنسيان، اللتين يعاني منهما الإنسان.

وإضافة الابن إلى نفسه (يا بني)، للدلالة على عاطفة الأبوة التي تزيل الحواجز مابين الأب وابنه.

- قوله تعالى: (يا بني لا تشرك بالله)، جملة إنشائية، جاءت على صيغة النداء، وهي تفيد معنى الزجر، أي المنع والنهي.

- جملة (لا تشرك بالله)، جملة إنشائية، جاءت على صيغة النهي، والمعنى المستفاد من جملة النهي، هو النصح والإرشاد. ودخول حرف النهي على الفعل المضارع، يخلصه للمستقبل[3]، بمعنى أن لايقع الشرك من ابنه مستقبلا.

كما يفهم من صيغة الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والحدوث، وتسليط النهي عليه (لا تشرك)، أن النهي عن الشرك في هذا السياق مطلق، يتخطى حدود المكان والزمان.

(1) انظر التحرير والتنوير: 21/ 154.

(2) انظر دلائل الإعجاز: 137.

(3) انظر البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 4/ 381.

- وقد حذف المفعول به للفعل (تشرك)؛ لإفادة النهي عن جميع أنواع الشرك، فالشرك ضد التوحيد، وهو نوعان: أكبر وأصغر، وتفصيل ذلك في كتب العقيدة[1].

ومن اللافت للنظر، أن لقمان عليه السلام. بدأ بنهي ابنه عن الشرك أولاً، ولم يأمره بالعبادة، فلم يقل: يا بني اعبد الله؛ لأن التوحيد هو الأصل، فلا تصح العبادة ما دامت العقيدة منحرفة، فلو أتى الإنسان بأركان الإسلام الأربعة، ولكنه لا يؤمن بالله . عز وجل .، فلا تقبل منه هذه الأركان الأربعة.

- قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)، جملة خبرية، مؤكدة: بأن، واللام المزحلقة، وهي لام التوكيد، وتسمى لام الابتداء، والمعنى المستفاد من الجملة الخبرية، هو النصح والإرشاد.

وقد أكدت الجملة الخبرية بمؤكدين اثنين؛ لأن لقمان . عليه السلام . كان يريد أن يؤكد لابنه خطورة الشرك على نفسه من ناحية، ولكونه منكرا للوحدانية، مفضلا الشرك على التوحيد من ناحية أخرى.

- وجملة (إن الشرك لظلم عظيم)، جملة تعليلية للنفي. فلقمان . عليه السلام . لم يقل لابنه: (لا تشرك بالله) وسكت، ولكنه علل لابنه لماذا نهاه عن الشرك؟

فقال: (إن الشرك لظلم عظيم). وهذا أسلوب تربوي فريد، فعلى الآباء والمدرسين، إذا نهوا أبناءهم عن أمر من الأمور، أو أمروهم بشيء ما، أن يعللوا سبب هذا النهي، أو هذا الأمر، حتى يستجيبوا لما طلب منهم.

والظلم: هو "وضع الشيء في غير موضعه"[2]. فالشرك ظلم؛ لأن المشرك يأخذ حق الله، ويعطيه لغيره. فحق الله . عز وجل . عدم الإشراك به، لقوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً) النساء/ 116. فأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد[3].

- وجاءت كلمة (ظلم) نكرة، وذلك لتعظيم شناعة الظلم، وبيان تعدد أنواعه، وأشكاله. واختيرت هذه الكلمة على غيرها من الكلمات نحو: (إن الشرك لأثم عظيم)، أو (إن الشرك لذنب عظيم)؛ لأن كلمة الظلم منفرة، ينفر منها الظالم والمظلوم، فالظالم يكره الظلم إن وقع عليه، كما هو الشأن عند المظلوم. فبين الظلم والظلمات تقارب وتوافق في المعنى، يقول عليه السلام: (اتقوا الظلم،

(1) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ص 74، المكتب الإسلامي . بيروت .، ط4، 1391 هـ.

(2) مختار القاموس: ص 398، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1983 م

(3) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ص 87.

فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[1]، وبينهما جناس اشتقاق، تجمعهما مادة واحدة (ظلم) ، فمعنى الظلم، يختلف عن معنى الظلمات.

- وجاء الشرك اسما ظاهراً، وليس مضمرا في قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)، فلم يقل: (إنه لظلم عظيم)، وذلك لبيان قبح الشرك، وبشاعته، والتنفير من صورته القاتمة المظلمة.

- فالآية تنوعت بين أسلوب الإنشاء المتمثل بأسلوب النداء، والنهي، وأسلوب الخبر، فالنداء تنبيه وزجر لابنه لما يأتي بعده من كلام مهم، والنهي منع للفعل، والخبر تقرير لظلم الشرك. وهكذا نجد أن أسلوب النداء، والنهي، والخبر في هذه الآية، قد تضافرت على رفض الشرك.

- وقد جاءت الفاصلة القرآنية (عظيم) صفة للظلم؛ وذلك لبيان عظمة الظلم وبشاعته ، مع ملاحظة أن حرف الميم، مسبوق بحرف مد، وهو الياء، حيث يساعد هذا الحرف على مد كلمة (عظيم)، فامتداد لفظها، يوحي بامتداد معناها، وهذا يؤكد على عظمة صفة الظلم.

كما أن الفاصلة (عظيم) جاءت اسماً، وهي تفيد الثبوت والاستقرار، بمعنى أن صفة الظلم عظيمة في بشاعتها وقبحها، فهي صفة ثابتة، لا يمكن أن تتغير صورتها المنفرة في كل زمان ومكان.

ومن ناحية أخرى، جاءت الجملة في قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)، مفصولة عن الجملة التي قبلها (لا تشرك بالله)، وسبب الفصل يعود إلى أن الجملة الثانية، مؤكدة للجملة الأولى، وهذا من مواطن الفصل.

ويمكن أيضا أن يعود سبب الفصل إلى تقدير سؤال من ابن لقمان مفاده: لماذا لا أشرك بالله؟ فيكون الجواب: إن الشرك لظلم عظيم. وهذا يسمى في علم البلاغة، بالاستئناف البياني، وهو من موجبات الفصل بين الجملتين. وكذلك يمكن أن يعود سبب الفصل، إلى وجود تباين بين الجملتين، فالأولى: إنشائية (لا تشرك بالله)؛ لأنها جاءت نهيًا، والثانية: جملة خبرية، وهذا الاختلاف بين الجملتين يعد من موجبات الفصل.

ثم جاء البيان القرآني بكلمة (عظيم) وصفا للظلم، دون كلمة (كبير) أو(شديد)؛ لأن العظيم أشد وصفا للظلم من أي كلمة أخرى.

(1) صحيح مسلم: 4/ 1996، كتاب البر والصلة والأدب.

المطلب الثاني: تعريف ابنه بكمال علم الله وقدرته

لقد نبه الله . سبحانه وتعالى . على كمال علمه وقدرته في قوله . تعالى . : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). سورة ق /16. وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) آل عمران/ 5.

فعلم الله مطلق، يحيط بكل شيء: (ظاهره وباطنه، دقيقه وجليلة، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته)[1]. فعلمه غير مستفاد من الأشياء، بينما الأشياء مستفادة منه[2]. وكذلك قدرة الله مطلقة، فهو إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل[3].

إن هدف لقمان . عليه السلام. من تعريف ابنه بعلم الله وقدرته، هو حرصه الشديد على ألا يقع ابنه في الشرك، كما يريد أن ينبهه إلى أن الله يعلم ما يفعله الإنسان من خير أو شر في حالة السر والعلن. ومن هنا جاءت وصيته بهذا الأمر، من خلال قول الله. عز وجل. (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) لقمان/ آية 16.

مثقال: بكسر الميم، جاء على وزن اسم الآلة، وهو وزن أصغر شيء، الخردل: نبات عشبي، له حب صغير جداً، أسود اللون، مفرده خردلة.

جاء فعل الشرط (تك)، بتاء المضارعة المؤنثة، وأعيد عليه الضمير مؤنثا في قوله: (بها) (يأت بها الله)، مع العلم أن لفظ (مثقال) غير مؤنث، لكنه مضاف إلى كلمة (حبة)، وهي مؤنثة، فاكتسب الفعل (تك) التأنيث من المضاف إليه، فالمعنى راجع إلى حبة الخردل، ومن هنا كان التأنيث[4]. ومن حيث اللغة، لو حذفنا المضاف (مثقال)، لما اختل الكلام؛ لأنه يستغنى بالمضاف إليه عن المضاف[5]، فلو قلنا: (إنها إن تك حبة من خردل فتكن...) لكان الكلام مستقيما، ولكن المعنى، لا يكون بدرجة وجود المضاف في الآية الكريمة.

إذن، ما السر البلاغي في وجود المضاف مثقال، مضافا إلى حبة الخردل، في النص القرآني؟

(1) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ص 81. لأبي حامد الغزالي.

(2) السابق: ص81.

(3) السابق: ص119.

(4) انظر معاني القرآن، للفراء: ج2، ص328، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ج4، ص198/197.

(5) انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ج/ 21 ص162.

إن السر في ذلك. والله أعلم .، أن لقمان. عليه السلام . عندما سأله ابنه عن الحبة التي تكون في مَقْل البحر (بفتح الميم، وسكون القاف)، أي في أعماقه، أيعلمها الله؟[1].

خطر في قلب لقمان . عليه السلام أن يبين لابنه أنواع الحبوب، حتى يوازن بين حبة الخردل، والحبوب الأخرى.

فكلمة الحبة مطلقة، فالحبوب أنواع: منها حبوب القمح، والشعير، والذرة، والشوفان وغيرها، ومن المعلوم أن هذه الحبوب، حجمها أكبر من حبوب الخردل، وكل نوع منها له وزن توزن فيه، فلما أراد لقمان أن يجيب عن تساؤل ابنه عن الحبة التي تكون في أعماق البحر، وعلم الله لها، ذكر له أن الله يعلم أقل الحبوب وزنا، وهي حبوب الخردل، ومن هنا حسن أن يذكر الوزن الذي توزن فيه، وهو المثقال، (فعبر بمثقال الحبة؛ لأنه أقل ما يخطر غالباً بالبال، وهي أعظم حاث على التوحيد) [2].

فالمثقال: ما يوزن به، وهو من الثقل، وذلك اسم لكل سنج[3] أي الميزان.

وجاء في لسان العرب: المِثْقال في الأَصل: مقدار من الوزن أَيَّ شيءٍ كان من قليل أَو كثير، فمعنى مِثْقال ذرَّة وزن ذرة[4].

وقد ورد لفظ (مثقال) في القرآن الكريم، وكذلك في الحديث الشريف، فمن ذلك قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه) الزلزلة:7.

وأما في الحديث الشريف، فقد ورد لفظ (مثقال) في قوله عليه السلام: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان)[5].

- بدأت الآية الكريمة بمناداة ابنه (يا بني)، وهذا أسلوب إنشاء، والقصد منه الطلب من المنادى، أن يستحضر قواه العقلية والحسية، والنفسية، وأن يكون مصغيا، لا مستمعا؛ حتى يعي تماما ما بعد النداء من تنبيه وتوجيه، مستخدما حرف النداء (يا)، والقصد منه تنبيه ابنه لما سيأتي. وقد مر بنا، أن هذا الحرف، يستخدم لنداء القريب، والمتوسط، والبعيد. وهو هنا ينادي ابنه عن قرب،

(1) انظر: معاني القرآن للزجاج: 4/ 197، وانظر الكشاف: 4/ 233، وانظر: البحر المحيط: 180/7، وانظر: المحرر الوجيز: 4/ 350، وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 19/ 51.

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 6/ 18.

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص 76.

(4) لسان العرب: 11/ 86 مادة: ثقل.

(5) صحيح مسلم: 1/ 93، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (39) / سنن ابن ماجة:9/2 المقدمة.

فالمعنى: أن ابنه قريب إلى قلبه، ونفسه، وذاكرته. والفائدة من تكرار النداء لابنه، هو لتجديد نشاطه؛ لكي يعي ما يقوله له من وصايا وحكم.

كما نلحظ أن لقمان، يكرر كلمة (بني)، وذلك للدلالة على مدى محبته لإبنه، فتكرار الشيء مرات، يدل على التلذذ بذكره، وشدة التعلق به ، كما أنه خاطب ابنه على صيغة التصغير (بني)، وهو تصغير لكلمة (ابن)، للدلالة على شفقته ورأفته، ورقة قلبه، وعطفه وحنانه تجاه ابنه.

- بعد المناداة، انتبه الابن لما سيقوله الأب لقمان - عليه السلام . فكانت الوصية بتذكيره بكمال علم الله وقدرته، وهما أمران مهمان يتعلقان بالعقيدة؛ لأن لهما تأثيرا في صحة العبادة، واستقامة السلوك، والأخلاق، فقال الله. سبحانه. على لسان لقمان: (إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ...).

بدأ يعرض لقمان. عليه السلام . أمر العقيدة على ابنه من خلال ضمير الشأن والحالة في قوله تعالى: (إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ...). فالضمير في (إنها)، راجع إلى الحسنة والسيئة اللتين تكونان في الصغر كحبة الخردل[1]، وغالبا ما يقع هذا الضمير، بعد (إن). والسر في استخدام ضمير الشأن، هو تعظيم وتفخيم المخبر عنه، بأن يذكر أولا مبهما، ثم يفسر[2]، وتشويق السامع لمعرفة ما بعده، كما أنه يحث المخاطب على الاهتمام والحرص لما بعده من حديث. فالضمير هنا جاء كناية عن الحسنة والسيئة؛ لإفادة العموم، حتى تذهب النفس فيه كل مذهب ومجيء الضمير كناية هو رأي نحوي البصرة[3].

لقد اجتمع في قوله تعالى: (يا بني إنها...) ثلاثة مؤكدات هي: النداء، وحرف التوكيد (إن)، وضمير الشأن أو القصة، وذلك لعظم ما يأتي بعدها، ولتقرير وصف الله. تعالى. بالعلم والقدرة، فعلمه مطلق، يحيط بجميع الكائنات، وقدرته كذلك مطلقة، محيطة بكل شيء، بقرينة قوله ـ تعالى .: (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)[4].

(1) انظر التفسير الكبير، للرازي: ج / 25 ص120، وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري: ج21 ص50.

(2) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 2/ 287.

(3) انظر جامع البيان في تفسير القرآن، محمد جرير الطبري: 46/21.

(4) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ج 21/ 162.

- ومن المعلوم أن ضمير الشأن يعود على جملة تقع بعده لا قبله، سواء أكانت فعلية، أم اسمية، وهنا الجملة التي وقعت بعده جملة فعلية شرطية. فعل الشرط (تك)، وهنا يرد سؤال مفاده، لماذا حذف حرف النون من فعل الشرط (تك)، وأثبت النون في (فتكن)؟

الجواب: إن فعل الشرط (تك) أصله (تكن)، وهو فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة، ولكن ما السر في حذف حرف النون من الفعل المضارع؟ إن سياق الآية، يتحدث عن العمل القليل من الحسنات أو السيئات، ولو كانت بقدر حبة الخردل التي يضرب بها المثل في الصغر، وقد خص الخردل بالذكر، لكمال المبالغة، وهو أصغر الحبوب قدرا. فالسر إذن في حذف النون من فعل الشرط يعود لأسباب منها:

أولاً - أسقط النون للإيجاز[1]؛ لأن الموقف كان إسداء نصح وإرشاد لابنه، فالموقف يتطلب السرعة في النصيحة، وبخاصة أن الأمر يتعلق بقدرة الله وعلمه.

ثانياً - إن حذف حرف النون من الكلمة، يخفف من وزنها، ويقلل من حروفها، لذا جاء هذا الحذف؛ ليتناسب مع ما بعده في القلة، وهي خفة وزن حبة الخردل.

ثالثاً - ثم جاء هذا الحذف أيضا، ليتناسب مع تأنيث ضمير الشأن في (إنها)، وكان السر في هذا التأنيث، هو التقليل والتحقير[2]، للمتحدث عنه.

رابعاً - كذلك جاء حذف حرف النون من (تكن)، للدلالة على أقل الكون وأصغره[3].

خامساً- كذلك حذفت النون؛ لأنه لم يذكر المكان ولم يحدد بعد.

وأما إثبات النون في (فتكن)، فله دلالتان:

أولاً - ثبوت حبة الخردل في مكان ما، إما في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض ، لكي يزداد تشوف النفس، ويذهب الوهم (أي التخيل) كل مذهب، لما علم أن المقصد عظيم[4]، فلما حدد المكان أثبتت النون.

ثانياً - اتصال حرف النون بالفاء (تكن في صخرة)، فيه إخفاء من حيث أحكام التجويد، وهذا يوحي بخفاء حبة الخردل، فإثبات النون، كان عاملا مساعدا في تعزيز هذا المعنى.

(1) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ج6 / 18.
(2) انظر السابق: ج6/ 18.
(3) انظر السابق: ج6/ 18.
(4) السابق: ج6 / 18.

وهكذا نجد أن إثبات حرف النون في (فتكن)، أفاد دلالتين: ثبوت حبة الخردل في مكان ما، مع خفائها في مكان غير معلوم.

- وقد جاء فعل الشرط (تك)، وجوابه (يأت)، بصيغة الفعل المضارع، لكي يستحضر ابنه ذهنيا، صورة حبة الخردل المتناهية في الصغر، وصورة خفائها في مكان غير معلوم في السموات أوفي الأرض، ومع هذا الصغر والخفاء، فالله. عز وجل. يعلم مكان حبة الخردل، فيأتي بها.
- لقد ضرب لقمان. عليه السلام. حبة الخردل مثلا لابنه، للعمل القليل الذي يفعله الإنسان من إحسان، أو إساءة، فمهما قل العمل من خير أو شر، يعلمه الله، كما يعلم مكان حبة الخردل في أي مكان، فيأتي بها الله، وقصده من ذلك، إفهام ابنه بقدرة الله، وعلمه، وذلك لما للصفتين: العلم والقدرة من تأثير عظيم على سلوك الإنسان، فلقمان. عليه السلام. أراد أن يخوف ابنه بعلم الله وقدرته، حتى يتوصل إلى هدفه، وهو حثه على العبادة، والصبر، ومكارم الأخلاق، والعادات الحميدة، فكان ذلك.

بعد أن ذكر لقمان. عليه السلام. حبة الخردل، مبالغة في صغرها، ولكونها أصغر الحبوب حجما وقدرا، وأدق الأجسام خفاء، فالله يعلمها، ويأتي بها، فكيف لو كانت هذه الحبة الصغيرة مخفية في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض؟

- قوله تعالى: (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) لقمان: 16.

يقول أهل التحقيق: (إن خفاء الشيء، يكون: إما لغاية صغره، وإما لاحتجابه، وإما لكونه بعيداً، وأما لكونه في ظلمة)[1]. فقد تحقق خفاء حبة الخردل، إما لكونها صغيرة، وإما لكونها محتجبة في صخرة صماء، وإما لكونها بعيدة المنال في السموات، وإما لكونها في ظلمة الأرض.

لقد استوفت هذه الآية، جميع أقسام المعنى التي تتعلق بخفاء حبة الخردل، وهذا النوع من البديع، يسمى التقسيم، وقد عرفه البلاغيون بقولهم: (استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يترك منها قسما محتملاً)[2].

(1) انظر التفسير الكبير، للفخر الرازي: ج25/ ص 121، وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج/ 21 ص 51.

(2) علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د/ بسيوني عبد الفتاح: ص 213، وانظر: علم البديع، للدكتور: عبد العزيز عتيق: ص/ 129.

- قوله: (في صخرة)، ولم يقل (على صخرة)؛ لأن حرف الجر(في)، يفيد الظرفية، والوعائية، والتمكن، فهو أدل على المعنى في خفاء حبة الخردل، من حرف الجر (على)، الذي يفيد الظهور والاستعلاء الحقيقي، أو المجازي، فلو جيء بحرف الجر (على)، لكانت حبة الخردل، تعلو الصخرة، فهي ظاهرة الوجود، وليست مخفية عن الأنظار.

ثم جاءت كلمة (صخرة) نكرة غير مقيدة؛ لأن مكانها غير معروف، فهل هي في السماء سابحة، أم في الأرض، أم في مكان ما، لا يعلمه إلا الله - عز وجل - فلم يقل: صخرة في الأرض، أو صخرة في السماء، بل جاءت مطلقة، دون تقييد. وقد ذكر الفخر الرازي أن بعض المفسرين، أشار إلى أن هذه الصخرة، ليست في الأرض، ولا في السماء، بينما ذهب آخرون إلى تقديم الخاص (صخرة)، وتأخير العام، وهو (الأرض). ومعنى ذلك أن هذه الصخرة إحدى صخور الأرض[1]، ولكنها أعظمها، لكونها ذكرت إلى جانب السموات والأرض، فهذه الصخرة لها شأن عظيم، لا يعلم سرها إلا الله - عز وجل-.

بينما جاءت (السموات)، (والأرض) معرفتين؛ لأنهما معروفتان لبني البشر.

- وتكرار حرف الجر (في) في الآية، يفيد التوكيد، والاستقلالية؛ بمعنى: أن خفاء حبة الخردل في (صخرة)، غير خفائها في السموات، وكذلك غير خفائها في الأرض، فكل مكان يختلف عن الآخر، فالتنوع في الأمكنة، يكون البحث عن حبة الخردل فيها أصعب بكثير مما لو كانت في مكان واحد، وهذا يدل على إحاطة علم الله، وقدرته بالكون كله.

- وقدمت (السموات) على (الأرض)، لأمر بلاغي يقتضيه السياق. فمن المعلوم، أن تقديم الألفاظ بعضها على بعض، يقتضيها مراعاة الحال، وسياق الكلام. فأحيانا تقدم السموات على الأرض، وهو الأصل، لكثرة ورود تقديم السموات في القرآن الكريم، وأحيانا تقدم الأرض على السموات، وسواء قدمت السموات، أو قدمت الأرض، فسياق المقام يستدعي ذلك. وهنا في سورة لقمان، قدمت السموات على الأرض؛ لأن الأمر يتعلق بصفات الذات الإلهية، فهو عليم، قدير، لطيف، خبير، ولا يتعلق بأمور الأرض، وسكان الأرض.

ومن ناحية أخرى، أن السماء أشرف من الأرض، فيكفي في فضلها أن الله - عز وجل - موجود فيها، وكذلك عرشه، وكرسيه، وأنها مستقر رسله وأنبيائه، وعباده المؤمنين يوم الحشر، وأنها مطهرة من كل خبث، ودنس، وشر، ولهذا لا تفتح أبوابها للأرواح الشريرة، وهي مسكن الملائكة الذين لا

(1) انظر التفسير الكبير، للفخر الرازي: ج25/ ص 121، وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج21/ص51.

يعصون الله طرفة عين، وفيها أعظم آيات الله، من جنة ونار، وما فيها من بروج، وكواكب، وشمس، وقمر، واستغناؤها عن عمد لقوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) لقمان/10، ولهذا جاءت في كتاب الله في أغلب المواضع ، مقدمة على الأرض[1].

- ومن حيث الإفراد والجمع[2]، فدائما تأتي السموات في كتاب الله مجموعة أو مفردة ، بينما الأرض، لا تأتي إلا مفردة.

ولعل السر في ذلك يعود لأمرين: الأول: لفظي، والثاني: معنوي. أما اللفظي، فراجع إلى خفة اللفظ في جمع السموات، وسهولة النطق به، وأما الأرض، فتجمع على أَرَضون، و أَرْضون، و أَراضٍ، و أُرُوض، أرضات بفتح الراء، والأراضي[3].

ومن هنا تجد ثقلاً، ونفورا في لفظ الجمع، ولذا لم يرد جمع الأرض، في كتاب الله - عز وجل - فإذا أريد الإشارة إلى سبع أرضين، يأتي التعبير القرآني بمثلهن، أي مثل خلق سبع سموات، يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) الطلاق: 12.

وأما الأمر المعنوي، فراجع لفضلها، وشرفها على الأرض، وقد مر بنا سابقا، أن السماء أشرف من الأرض، وذلك عند الحديث عن تقديم السموات على الأرض، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إذا أريد العدد أتي بصيغة الجمع، التي تدل على الكثرة، وسعة العظمة، نحو قوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الحديد /1.

أي يسبح جميع سكانها، على كثرتهم، وقوله تعالى: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) التغابن /1 ، والمعنى: يسبح كل واحد، على اختلاف عدد السموات، وقوله تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) النمل/ 65 ، فالمراد نفي علم الغيب عن كل من هو في كل واحدة من السموات .

وإذا أريد جهة السماء، أتي بصيغة الإفراد، نحو قوله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) الذاريات:22، وقوله تعالى: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) الملك/ 16، والمعنى من فوقكم.

(1) انظر: بدائع الفوائد: 4/ 24، لابن القيم الجوزية، وانظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: ص109.
(2) انظر: الإتقان في علوم القرآن: 2/ 299 للسيوطي، وانظر: بدائع الفوائد :4/ 24.
(3) انظر مختار الصحاح، للرازي: ص 13، مادة أرض، وانظر: مختار القاموس، للزاوي: ص18، مادة أرض.

- وبين السموات والأرض تضاد، فالسموات علو، والأرض سفل، ومن هنا جاء التضاد من حيث العلو والسفل، فاللفظان متضادان من حيث المعنى، ولكن من حيث المضمون، ليس بينهما تضاد، بل بينهما تكامل في الوظيفة والمهمة ، ويمكن أن نطلق على هذا النوع من التضاد، بالتضاد التكاملي. تضاد: من حيث المعنى، وتكاملي: من حيث المضمون. فالسموات والأرض، نعمتان من نعم الله . عز وجل . وكل نعمة تساوي الأخرى، ومكملة لها، ولهذا لا يمكن أن نقول: هذه ضد تلك، أو أن هذه جاءت لتعاند تلك، بل نقول: جاءت كل منهما (السموات والأرض) لتساند الأخرى، حيث جعلهما الله - عز وجل - متكاملتين؛ لتنجح الحياة ، ولو تعاندا - أي تضادا - لفسدت الحياة. فالسموات: لها مهمة ووظيفة، وكذلك الأرض: لها مهمة ووظيفة، فكل واحدة منهما، مكملة للأخرى من حيث الوظيفة والمهمة. وهذا النوع من التضاد، يختلف عن التضاد ما بين العلم والجهل، أو بين العز والذل، أو بين القوة والضعف، أو بين الشجاعة والجبن، أو بين العدل والجور، أو بين الظلم والإنصاف... الخ؛ لأن التضاد واضح في هذه الأمثلة، والمعاندة حاصلة ما بين اللفظين، فليس كل لفظ فيها مكملا للآخر من حيث الوظيفة والمهمة. والسر في استخدام التضاد، هو أنه يوضح المعنى ويبرزه، وبه تتميز الأشياء.

- قوله تعالى: (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) آية: (16).

جاء التعبير بالفعل المضارع (يأت بها)، وليس بالفعل (يعلم بها)؛ لأن الإتيان، أبلغ من قول القائل يعلمه الله، فقد يُعلم مكان الشيء، ولكن لا يمكن الإتيان به، فقوله(يأت)، يتضمن العلم، مع القدرة، فالإتيان كناية عن القدرة، والتمكن منها[1].

وقوله: (بها الله)، أسلوب قصر، جاء بطريق تقديم الجار والمجرور على الفاعل(الله)، وأصل الكلام: (يأت الله بها)، فالتقديم يفيد أن الإتيان بحبة الخردل، مقصور على الله وحده لا على سواه، ولولا هذا التقديم، لكان المعنى: أن الله يأتي بحبة الخردل، وغيره كذلك يأتي بها، وهذا خلاف المقصود.

- قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).

لقد أعاد اسم الله الأعظم (الله)، ولم يأت بضمير العظمة: (إنه لطيف خبير)، تنبيها على استحضار عظمة الله، وتعميما للحكم[2].

(1) انظر: التفسير الكبير، للرازي: ج25/ 121، وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج19/ 51.

(2) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 6/ 19.

وجاءت الآية (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، جملة خبرية مؤكدة ب (إن)، والجملة الاسمية التي تدل على الثبوت والاستمرار، وذلك لترسيخ مضمونها في ذهن السامع، ولإزالة الإنكار عنه. والمعنى المستفاد من هذه الجملة الخبرية هو: بيان سعة علم الله وقدرته، ومدى إحاطته بدقائق الأشياء والأعمال، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تفيد الجملة أيضا معنى التخويف والتهديد لمن يعصي الله . عز وجل. لكونه مطلعا على خفي الأعمال في السر والعلن.

- وقوله (لطيف خبير)، "صفتان لائقتان بإظهار غرائب القدرة"[1]، واللطف لغة: لطف الشيء، بمعنى: صغر، واللطف في العمل: الرفق فيه، ولطف الله لك: أوصل إليك مرادك بلطف. واللطيف: البر بعباده، المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف[2]. فالرفق إذن: اجتماع العلم مع الرفق في الفعل، فإذا اجتمع الرفق في الفعل، واللطف في العلم، فقد تم معنى اللطف[3].

فالله - سبحانه وتعالى - لديه القدرة الكاملة، على أن يخرج حبة الخردل من داخل الصخرة بلطف، دون أن يحدث فيها صدعا أو كسرا، أو تشققا، مع الحفاظ على سلامتها وسلامة حبة الخردل.

- والخبير: بمعنى العليم، فإذا أضيف العلم إلى الخفايا الباطنة، سمي خبرة، وسمي صاحبها خبيراً[4]، فالله - عز وجل - لطيف باستخراج حبة الخردل، خبير بمكانها ومستقرها. والخبرة أبلغ من العلم؛ لأنها علم وزيادة، فالله ـ سبحانه وتعالى. هو العَالِم بما كَان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لو كان كيف يكون، وليس ذلك إلا لله - عز وجل - فهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو خبير بأحوال عباده، فلا يحدث شيء إلا بخبرته، ولا يتحرك متحرك ولا يسكن إلا بعلمه، ولا تستقيم حياته إلا بأمره وإذنه.

- وجاءت الصفتان: (لطيف خبير)، على وزن (فعيل)، فـ (لطيف) صفة مشبهة تدل على ثبوت الصفة، فأصل هذا الوزن مأخوذ من فعل لازم مضموم العين بمعنى: أن صفة (لطيف) ثابتة لله - عز وجل، وأما صفة (خبير) فجذرها فعل متعد، فهي صيغة مبالغة، تفيد تكرار الفعل وكثرة وقوعه، وهاتان الصفتان خارجتان عن نطاق الزمن، تدلان على سعة علم الله وقدرته.

- وجملة (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) جملة تعليلية لما قبلها. ولكن ابن عاشور، لم يجعلها تعليلية؛ لأن المقام مقام تعليم لقمان لابنه، وهذا يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق التي ذكرها لقمان سابقا،

(1) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 350.

(2) انظر مختار الصحاح: ص598، وانظر: مختار القاموس: ص 551.

(3) انظر: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ص 92.

(4) انظر: السابق: ص 93.

فشرط التعليل أن يكون الابن مسلما، معلوما قبل العلم بالمعلل، ليصح الاستدلال به، ولذلك فصلت الجملة {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} عما قبلها، ولم تعطف عليها؛ لأنها كالنتيجة من الدليل، ولذلك جيء بالنتيجة كلية، بعد الاستدلال بجزئية[1].

- وجاءت الفاصلة (لطيف خبير) جملة اسمية، منتهية بكلمتي: لطيف خبير، ومعلوم أن أغلب الفواصل في القرآن الكريم، تختم بحروف اللين، والمد ، وإلحاق الميم والنون بها؛ لتقاربهما في المخرج، والسر في ذلك - والله أعلم - لمد الصوت للتطريب. قال سيبويه -رحمه الله - عن طبيعة العرب: (إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف، والياء، والنون، يريدون مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا)[2].

وجاءت الفاصلة، متمكنة في مكانها، لمناسبتها لسياق الآية. فقد ذكر في صدر الآية أن لقمان - عليه السلام -يخبر ابنه عن إحاطة علم الله -عز وجل -بالأشياء، فضرب له مثال حبة الخردل، فلو كانت مخفية في أي مكان، يأت بها الله -عز وجل -فجاءت الفاصلة على الترتيب: "لطيف"، "خبير". لقد جاء اسم (الخبير)، في مواضع متعددة من القرآن الكريم مقرونا باسم (اللطيف)، وذلك لوجود علاقة بين الخبرة، واللطف[3]، ولم يأت العكس (خبير لطيف)؛ لأن الرفق في الفعل، وعدم العنف، يحتاج إلى خبرة، لذا قدم اسم (اللطيف)، على اسم (الخبير). وأحيانا يأتي اسم (الخبير)، غير مقترن باسم (اللطيف)، وإنما مقترن باسم آخر كاسم (الحكيم)، كقوله تعالى: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) سورة الأنعام: 18، وكقوله - تعالى - في سورة الحجرات (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) آية: 18، فتغيير الأسماء يكون بحسب سياق معنى الآية.

المبحث الثاني: وصايا دعوية تربوية

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (17).

في هذه الآية الكريمة، نجد لقمان - عليه السلام - يأمر ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم يأمره بالصبر؛ لأن الصلاة تحتاج إلى صبر، والتصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتاجان إلى صبر كذلك، حيث إن من سلك طريقهما يتعرض إلى أذى الناس:

(1) انظر تفسير التحرير والتنوير: ج21/ 164.

(2) الكتاب، سيبويه: 2/ 109.

(3) انظر موسوعة أسماء الله الحسنى، للنابلسي: 2/ 108.

نفسيا، ومعنوياً، وجسدياً، ولذا ما من عمل إلا ويحتاج إلى صبر، فالصابرون لهم أجر عظيم عند الله - عز وجل - يصل إلى عدم حسابهم عند الله، قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) الزمر/10.

بعد أن نبه لقمان - عليه السلام - ابنه على أصول العقيدة؛ لأنها هي الأساس، انتقل إلى توجيهه إلى الأعمال الصالحة، وأولها الصلاة (أَقِمِ الصَّلَاةَ)، فلا يمكن لمسلم أن يقوم بمهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دون أن يقيم الصلاة، فليبدأ المرء بنفسه أولا، ثم ينتقل إلى إصلاح غيره.

فالصلاة عبادة يقوم بها الفرد نفسه، بينما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبادة تخص سفينة المجتمع، ومن هنا جاء الترتيب في العبادة، من العبادة الفردية، إلى العبادة الجمعية، ولا يجوز العكس.

قوله تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ). لقد كرر لقمان - عليه السلام - كلمة (يا بني)، من باب التحبب، والتلذذ بذكره، والحرص على عاطفة الأبوة التي هي فطرة في الإنسان. وكلمة (بني)، تصغير (ابن)، حيث سبق هذا الاسم، بأداة النداء (يا)، وهي تستخدم لمناداة القريب، والمتوسط، والبعيد، وسياق الآية، يدل على أن لقمان- عليه السلام - يخاطب ابنه وجها لوجه، فهو قريب منه، فاستخدامه لأداة النداء (يا)، لها دلالتان: الأولى: إما أن نقول: لقد نزل القريب، منزلة البعيد، للدلالة على أن ابنه، له منزلة بعيدة، ومكانة رفيعة في نفسه، وإما أن نقول: لقد نزل البعيد، منزلة القريب، للدلالة على أن ابنه قريب إلى فلذة كبده، ولصيق إلى سويداء قلبه.

جاء فعل الأمر (أقم الصلاة)، دون فعل الأمر (أدِّ الصلاة)، لاختلاف المعنى بينهما.

فهناك فرق كبير بين الفعلين. فإقامة الصلاة، تعني إقامتها شكلاً، ومضمونا، أي صلاة فيها خشوع وتدبر، وصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، مع المحافظة على فروضها وأوقاتها. وأما الفعل (أد الصلاة)، فيعني: تأديتها شكلا وصورة دون خشوع، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر. والمتتبع لسور القرآن الكريم، يجد أن أسلوب القرآن يستخدم الفعل (أقام) مع الصلاة وما يشتق منه، ولم يستخدم الفعل (أدى)، وما يشتق منه مع الصلاة، فمن مجيء الفعل (أقام) وما يشتق منه، قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) البقرة:3.

(... وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ) البقرة:177.

(... وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء: 162.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) هــود: 114.

(رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) النور: 37.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) الأحزاب: 33.

فالصلاة عمود الدين، وهي علامة على صدق الإيمان، وقد جاء الأمر الإلهي بإقامتها، وليس بتأديتها، كما هو واضح في الآيات السابقة.

جاءت الأفعال: أقم، وأمر، وانْهَ، واصبر في الآية، أفعال أمر، ومن المعلوم أن الأمر من أساليب الإنشاء، والمعنى الذي خرجت إليه أفعال الأمر، هو النصح والإرشاد، فلقمان . عليه السلام . يوجه ابنه إلى فضائل الأعمال، وأولها الصلاة، وهذا هو منهج الأنبياء . عليهم السلام . فإذا كان لقمان يأمر ابنه بالصلاة ، فنجد من جاء بعده من الأنبياء, يأمرون أهلهم بالصلاة، فهذا النبي إسماعيل عليه السلام . يأمر أهله بالصلاة قال تعالى: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) مريم: 55. بل لقد طلب الله - عز وجل - من رسوله الكريم محمد - عليه السلام - أن يأمر أهله بالصلاة، وأن يصبر عليها، قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) طه: 132.

لقد جاءت هذه الجمل موصولة بحرف العطف الواو، (أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)؛ لأن هذه الجمل متفقة من حيث كونها جملا إنشائية لفظا ومعنى، فوجب الوصل. والوصل عند البلاغيين هو: عطف جملة على جملة بأحد حروف العطف، وهو الواو[1] لغرض بلاغي، بعكس الفصل الذي هو ترك العطف بين الجمل، لغرض بلاغي أيضا.

وجاءت المقابلة بين معنيين اثنين في قوله تعالى: (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)، حيث قابل بين: الأمر والنهي، والمعروف والمنكر. وقد تصل المقابلة إلى مقابلة ستة بستة.

(1) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): 393 وانظر: الفصل والوصل دراسة تحليلية تذوقية: ص 56، وانظر الفصل والوصل في القرآن الكريم: ص:31.

والمقابلة لغة تعني: المواجهة، قابلت الشيء بالشيء، إذا واجهته، والتقابل مثله، وهو نقيض التدابر، وإذا ضممت شيئا إلى شيء، قلت: قابلته به[1]. واصطلاحاً هي: (أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو بمعان متوافقة، ثم بما يقابلهما، أو يقابلها على الترتيب)[2]. وقد عرف الزركشي المقابلة بقوله: (هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالفه في بعضها، وهي من باب "المفاعلة" وهي قريبة من الطباق)[3]. والفرق بينهما، أولا - هو أن الطباق، يكون بين ضدين غالبا، بينما تكون المقابلة لأكثر من ضدين غالبا، وثانيا - الطباق يكون بين ضدين فقط، بينما المقابلة، تكون بالأضداد وغيرها، وموضوع ذلك كتب البلاغة.

والمعروف هو "اسم لكل فعل يعرف بالعقل، أو الشرع حُسنُه، والمنكر ما ينكر بهما"[4].

وقد جاء في كتاب الكليات للكفوي أن "كل آية في الأمر بالمعروف فهو الإسلام، والنهي عن المنكر، فهو عبادة الأوثان"[5]، فالمعروف تميل إليه النفس؛ لأنه كله خير، فالشرع يستحسنه، والعقل الصحيح يقره، بينما المنكر، ما عرف قبحه شرعا، وعقلا، ونفرت منه النفس وكرهته.

جاء المعروف، والمنكر معرفتين في الآية الكريمة، وهذا التعريف: للعهد، والجنس، ومعنى ذلك: أن المعروف، والمنكر، معهودان في الذهن لدى القارئ، أو السامع، كما أن التعريف بلام الجنسية، يفيد استغراق جميع أنواع المعروف، واستغراق جميع أنواع المنكر، فالمعروف أبوابه كثيرة، ومتنوعة، وكذلك المنكر.

فالمعروف عام، يشمل جميع الأعمال الصالحة، والمنكر عام، يشمل جميع الأعمال السيئة، فلقمان - عليه السلام - أجمل لابنه الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة، تحت مظلة كلمتي: المعروف، والمنكر، وهذا من جوامع الكلم.

وقدم المعروف، على المنكر، وليس العكس؛ لأن المعروف ظاهر غير مجهول، والظاهر البين، مقدم على المجهول، كما أن المعروف محبب للنفس، تألفه الطباع السليمة، وتقبله العقول الصحيحة، يحمل في طياته الخير والتفاؤل، ويثاب الإنسان على فعله، ولذلك قدم المعروف؛ لأن الإنسان يستبشر به خيرا، لموافقته للفطرة الإنسانية السليمة، والخير مقدم على الشر.

(1) انظر لسان العرب: 11/ 540 مادة (قبل)، وانظر: تفسير روح المعاني: 14 / 59.

(2) علم البديع: ذ/ عبد العزيز عتيق: ص 76

(3) البرهان في علوم القرآن:3/ 458.

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن: 343.

(5) الكليات: 176.

أما المنكر، فله من اسمه نصيب، فهو القبيح من الأفعال والأقوال، تنكره العقول الراشدة ، ويحكم الشرع بقبحه، وهو ضد المعروف ، يحمل في طياته الشؤم والشر، ولذا أخر، فالمعروف سمْته الجمال، والمنكر سمْته القبح.

ومن جهة أخرى، قدم المعروف؛ لأنه هو الأصل، بينما المنكر أمر طارئ لمخالفته للفطرة. كذلك قدم الأمر بالمعروف، على النهي عن المنكر، للتناسب الصوتي، فلو قيل في غير القرآن: (وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) لاختل التناسق، والإيقاع الصوتي.

جاءت في سورة الأعراف، كلمة (العرف)، وليس (المعروف)، قال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف: 199، والعرف: هو المعروف، ولكن له دلالة خاصة، فهو يوحي بعرف الفرس، وعرف الديك[1]. وبما أن عرف الفرس، وعرف الديك، هما أعلى شيء في الجسم، كذلك الذي يأمر بالمعروف، لابد أن يكون الأعلى: علماً، وخلقاً، وسلوكاً، وفعلاً، وقولاً، حتى يستطيع أن يؤثر في المجتمع، وأن يستجيب الناس لما يدعو إليه من محاربة الرذائل، ومنع المنكرات.

ولقد تكرر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في كثير من سور القرآن الكريم، للدلالة على أهميته، وعظيم منزلته في الإسلام، فهو أصل من أصول الدين، حيث قدم على الإيمان في قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران: 110 . فالمجتمعات الإسلامية، وبخاصة في هذا العصر، بحاجة ماسة إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك بسبب انتشار المعاصي، وظهور الشرك والبدع في المجتمع.

لقد ركز لقمان - عليه السلام -، في وصيته لابنه، على أمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر، بعد أن أمره بإقامة الصلاة.

إن شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي دعوة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - ومن جاء بعدهم من المؤمنين إلى ما شاء الله - عز وجل - قوله تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

قوله تعالى: (وَاصْبِرْ)، جملة إنشائية، كما مر سابقاً، ونوعها أمر، والغرض منه، النصح والإرشاد. والصبر من الأخلاق المكتسبة، وهو حبس نفس الإنسان عن الهلع، والجزع، والتشكي، فيحبس اللسان

(1) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن: 343.

عن الشكوى، والنفس عن التسخط، والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الحكم الشرعي، والإيمان بقضاء الله وقدره[1]. فالصبر يجعل الإنسان يتحمل ما يحل به من حزن، وألم، وأذى.

وهنا يرد سؤال: لماذا جاءت الوصية بالصبر بعد أن أمر لقمان - عليه السلام - ابنه بالصلاة ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟

إن هذه الأفعال لا بد لها من صبر، فالصلاة تحتاج إلى صبر، من حيث المحافظة على أدائها، ووقتها، وشروطها، والخشوع فيها، والالتزام بمقاصدها، كذلك الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنه يتعرض لأذى الناس: نفسياً، ومعنوياً، وجسدياً، فإذا لم يتسلح بسلاح الصبر، فإنه يحبط، ويتهاون في أداء هذا الواجب العظيم، ولربما يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فهذا لقمان - عليه السلام - يذكّر ابنه بالصبر، إن تعرض لمصيبة بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو عن طريق آخر، كأن تقع عليه مصيبة خاصة ليس له فيها غريم ، أو تقع عليه مصيبة بسبب الغير، فيكون له غريم.

فحرف الجر في قوله تعالى: (واصبر على ما أصابك)، يشعر بالاستعلاء المعنوي، وبثقل المصيبة إن وقعت على ابنه، حيث لا تعالج إلا بالصبر، وثبات القلب، ورباطة الجأش، فبالصبر على المصيبة، يكون ابنه مستعليا على الذي يصيبه من مكروه.

ف(ما) اسم موصول مبهم مطلق، بمعني الذي، حيث لم يحدد الشيء الذي يصيبه، و(ما) تفارق (الذي)، في كونها لا تثنى، ولا تجمع، وتقع على كل شيء، وعلى ما ليس بشيء، فتقول: إن الله يعلم ما كان، وما لم يكن، لفرط إبهامها[2].

وجاء الفعل (أصابك) بصيغة الفعل الماضي، للدلالة على أن المصائب متحققة الوقوع، فلا يخلو منها إنسان، حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره، ولا يفاجأ بوقوعها، بل يكون قد روض نفسه عليها.

لقد بدأ لقمان - عليه السلام - وصيته لابنه بإقامة الصلاة، وختمها بالصبر؛ لأنها هي الأساس، وهي الوسيلة المهمة للاستعانة بها، لما يأتي بعدها من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصيبة.

(1) انظر الفروق لابن قيم الجوزية: ص: 75.

(2) انظر بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 131.

لكن الصبر مجاله أوسع من الصلاة، فالصلاة عبادة محددة، وهي في حد ذاتها، داخلة تحت موضوع الصبر، فهناك صبر على طاعة الله، وصبر عن معصيته، وصبر على قدر الله، ولذلك تجد تقديم الصبر على الصلاة في القرآن الكريم، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 153)، فهو من باب عطف الخاص على العام، حيث عطف الصلاة على الصبر، وهو عام. فالصبر، والصلاة، هما أساس الحياة بعد التوحيد، وزاد المسير للطريق الطويل، وقارب النجاة.

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾.

اسم الإشارة (ذلك)، يشير إلى أوامر لقمان لابنه التي تتعلق بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على ما يصيبه من أذى ومكروه.

لقد ختمت الآية في سورة لقمان بقوله تعالى: (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، بينما

في سورة الشورى، جاءت آية قريبة الشبه منها، مع اختلاف قليل، وهو قوله تعالى: (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)(43).

في آية لقمان. عليه السلام. جاء الخبر غير مؤكد باللام، فلم يقل: (لمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، كما هو الشأن في آية الشورى؛ لأن الأمر الذي يصيب الإنسان نوعان كما يقول الشيخ الشعراوي:

نوع للإنسان فيه غريم، ونوع من الأمر لا يوجد فيه غريم، فهناك نوعان من الصبر: صبر على مصيبة ليس فيها غريم، كالصبر على أقدار الله . عز وجل . كمرض يصيب الإنسان، أو وقوع مكروه بقضاء وقدر في ماله وولده، أو في قيمه ومبادئه، أو غير ذلك، فهذا النوع من المصائب، يحتاج إلى صبر، ولكن دون حاجة لتأكيد الأمر؛ وذلك لعدم وجود غريم أمامي حتى انفعل، لكي آخذ حقي منه، لذا جاءت الآية في سورة لقمان، دون توكيد خبر (إن) باللام لهذا السبب.

أما الآية في سورة الشورى، فقد أكد خبر إن باللام (إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)؛ لأن الأمر (أي وقوع المصيبة) فيه غريم، لذا لا بد من تأكيد الصبر، وكذلك تأكيد الغفران (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ)، فالصبر على الغريم، يحتاج إلى جلد، وقوة عزم، وإرادة صلبة، وضبط للنفس، فأصعب شيء على الإنسان أن يصبر ويغفر.

ومن هنا جاءت اللام المؤكدة، لتؤكد الفرق بين عزم الأمور في الحالة الأولى، وعزم الأمور في الحالة الثانية، وهكذا نجد أن حرفا واحدا في القرآن الكريم يصنع معجزة[1]، ولو حصل العكس، لما ناسب ذلك.

والعزم مصدر، بمعنى الحزم والإلزام، قد يراد به اسم المفعول، أي معزوم الأمور، وقد يراد به اسم الفاعل، أي عازم الأمور، أي مما عزمه الله، وأمر به، والعزم ضبط الأمر، ومراعاة إصلاحه[2]. فإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على ذلك، لا يوفق إلى هذه الأعمال، إلا أصحاب الهمم العالية، والعزائم القوية.

وجاءت الفاصلة، وهي كلمة (الأمور)، وتسمى رؤوس الآيات، وهي الكلمة الأخيرة في الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع[3]. هذه الفاصلة جاءت منتهية بحرف الراء، مسبوقة بحرف مد وهو (الواو)؛ كالفاصلة التي قبلها (خبير)، والفاصلة التي بعدها (فخور)، فكلتاهما تنتهي بحرف (الراء)، وجاءت مسبوقة بحرف مد الياء؛ لأن حروف المد، واللين، لهما قيمة عظيمة من حيث الإيقاع، والترنيم، لذا كثر وقوعها في فواصل القرآن الحكيم؛ لأنها تساعد على مد الصوت، فتحدث تأثيرا نفسيا، وارتياحا شعوريا في نفس القارئ، أو السامع.

وكلمة (الأمور)، مفردها أمر، وقد جاء في كتاب الله بمعان متعددة، حيث استخدمت الكلمة بمعنى: الدين، لقوله تعالى: (حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ) التوبة: 48. ولقوله - عليه السلام -: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهو رد)[4]، ويأتي الأمر بمعنى: القول، والعذاب، والفتح والنصر، والقيامة، والوحي[5].

فكلمة (الأمور)، ينطوي تحتها إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على مايصيب الإنسان، فهي جزء من أوامر الدين، فهي جزء من كل.

(1) انظر: من فيض الرحمن في معجزة القرآن: ص: 60 وما بعدها، وانظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل 2/ 790.

(2) انظر البحر المحيط: 7 / 183، وانظر تفسير التحرير والتنوير: 21 / 166، لابن عاشور.

(3) انظر البرهان في علوم القرآن: 1/ 53، وانظر التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي: ص: 349.

(4) سنن ابن ماجة: 1 / 6، المقدمة، باب (2)، باب تعظيم حديث رسول الله . عليه السلام . والتغليظ على من عارضه.

(5) انظر: معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية: ص: 16.

هذه الأعمال الأربعة المذكورة، ثقيلة على النفس، تحتاج إلى أصحاب العزيمة القوية، والهمم العظيمة، حتى يقوم الإنسان بحملها، والعمل بها.

لكن هذه الأمور المذكورة في هذه الآية مقيدة بما ذكر أعلاه، وإلا فإن كلمة الأمور أوسع دائرة، وأشمل دلالة من هذه الأعمال الأربعة، فهي تشمل جميع أوامر الإسلام، ونواهيه، والذي يعزز تقييد الأمور، هو مجيء حرف الجر (من)، الذي يفيد التبعيض، أي بعض الأمور، وهي المشار إليها باسم الإشارة (ذلك).

جاءت الفاصلة القرآنية جملة اسمية، لتفيد ثبوت قيمة هذه الأمور، التي تعد من مقومات حياة الإنسان، والمجتمع وهي: الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر.

لقد فصلت جملة (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، عن الجمل السابقة، بمعنى أنها لم تعطف عليها بحرف العطف (الواو)؛ لأنها استئناف بياني، حيث جاءت جوابا لسؤال مقدر يفهم من السياق تقديره: لماذا اصبر؟ فيأتي الجواب: (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

وقد يكون الفصل أيضا، لاختلاف الجمل: إنشاء، وخبرا. فالجمل: أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، جمل إنشائية، وجملة (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، جملة خبرية، لذلك فصلت عن الجمل المتقدمة.

هذه الجملة الخبرية (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، نوعها طلبية؛ لأنها أكدت بمؤكد واحد، وهو أداة التوكيد (إنّ)، والسر البلاغي في توكيد الجملة، راجع إلى إحساس لقمان -عليه السلام -بأن ابنه لديه شيء من الشك، والتردد، في أن تلك الأوامر، تحتاج إلى قوة العزيمة، والصبر على تحملها، فجاء توكيد الجملة استحسانا، ليزيل الشك من نفسه. وأما المعنى المستفاد من هذه الجملة الخبرية، فهو النصح، والإرشاد.

الخاتمة:

الوصية جنس من الأجناس الأدبية، وغالبا تصدر عن خبير مجرب، قد عارك الأحداث، والوقائع، فهي تعتمد على أسلوب الأمر والنهي في تقديم النصيحة، والموعظة لمن يعنيه الأمر.

والوصايا نوعان: وصايا ربانية، وقد أشرت إلى ذلك في البحث، ووصايا بشرية، كوصايا: الأنبياء، والرسل - عليهم السلام - ووصايا الخلفاء، والحكام، والقضاة، والعلماء، والآباء، والأمهات، وغيرهم.

هذا وقد تناول البحث وصايا لقمان لابنه في موضوعين هما:

أولاً - وصايا عقدية، وتقع في مطلبين:

1 - حثه على التوحيد، ونهيه عن الشرك.

2 - تعريف ابنه بعلم الله - عز وجل - وقدرته.

ثانياً - وصايا دعوية تربوية، كإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر والثبات على المصائب، والشدائد.

وقد وصف الرسول - عليه السلام - القرآن بقوله: (... ولا يخْلُقُ عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)[1].

وأخيرا أقول كما قال سهل بن عبد الله: (لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه؛ وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه)[2].

(1) الجامع الصحيح، للترمذي: 4/ 245، باب ما جاء في فضائل القرآن، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ط /3، 1398 ÷ هـ - 1978 م، وانظر سنن الدارمي: 2/ 431، فضائل القرآن، دار الفكر- القاهرة، 1398 هـ - 1978م.

(2) البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 1 / 9.

المراجع

القرآن **الكريم**.

ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي بيروت لبنان، ط1 .1402هـ 1982م.

الإتقان في علوم القران، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا – بيروت , 1407هـ 1987م.

انظر شرح العقيدة الطحاوية، حققها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر- بيروت، ط/ 4.

بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

البداية والنهاية، لأبي النداء الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، بدون تاريخ.

البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة – بيروت – لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2.

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المكتبة العلمية – بيروت – لبنان.

البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن عمان، ط1، 1405هـ1985م.

تحقيق: أحمد جاد.

تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (محمد بن يوسف)، تحقيق: عادل أحمد، وعلي محمد، منشورات: دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1422هـ 2001م.

تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، 1984م.

التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط2، 1417هـ - 1997م.

التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، نشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ط1، 1970م.

جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت –لبنان،

الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة،

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة.

روح البيان في تفسير القران، إسماعيل حقي، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.

روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد مصطفى ألأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، ط2، 1404 هـ 1984م.

سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ط3، 1398 هـ - 1978 م.

سنن الدارمي، دار الفكر . القاهرة، 1398 هـ . 1978 م.

صحيح مسلم، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . السعودية، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، 1400هـ - 1480م.

الطبعة الثالثة، 1391هـ -1978م.

علم البديع، د. عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2 ،1970.

علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. مصر الجديدة ودار المعالم الثقافية الإحساء. ط 2، 1418هـ 1998م.

غرائب القران ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1381هـ -1926 م.

الفروق لابن قيم الجوزية، جمع وترتيب: يوسف الصالح، ط1، 1413هـ1992م.

الفصل والوصل دراسة تحليلية تذوقيه، د. بسيوني عرفة رضوان، القاهرة . الرسالة، ط1. 1405هـ 1985م.

الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب د. منير سلطان، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، 1997م.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري (أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، طهران، ط1.

لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر بيروت، ط1.

لقمان الحكيم وحكمه، محمد خير رمضان يوسف، دار المصحف، ط1، 1,1404هـ 1984م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1413هـ -1993 م.

محمد نديم فاضل، بدون تاريخ.

مختار الصحاح، محمد بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1401هـ1981م.

مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1983م.

معاني القرآن، للفراء (أبي زكريا يحي بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط3، 1401هـ ـ 1983 م

معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (أبي إسحاق إبراهيم بن السري)، تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، 1408 هـ -1988 م.

معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية، عبد الحليم محمد قنبس، مكتبة لبنان، بيروت ط11987م.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية / إستانبول.

معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر -بيروت.

المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، لأبي حامد الغزالي محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة القرآن للطباعة والنشر القاهرة. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، احمد بن الزبير الغرناطي، د. محمود كامل أحمد دار النهضة العربية للطباعة والنشر -بيروت -لبنان.1405هـ 1985م.

من فيض الرحمن في معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، ط4، 1407هـ1987م، الكتاب العالمي.

مواعظ لقمان في القران، محمد عبد اللطيف، دار الصحابة للتراث طنطا، ط1، 1412هـ 1992م.

الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد بن حنبل، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية، ط2، 1420هـ -1999م.

النثر الجاهلي بين الأصالة والانتحال، د. عبد الرحمن الهليل، دار المؤيد، الرياض، ط1422،1هـ 2002م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسين البقاعي خرج آياته وأحاديثه، عبد الرزاق غالب المهدي – دار الكتب العلمية –بيروت لبنان.